من الأدب الرمزي

هكذا تكلم بردى (*) !

للأستاذ علي الطنطاوي

تفتحت أبواب السماء بغيث منهمر استمرّ ليلة من (تلك) الليالي طولها عشرة آلاف سنة ، فأغرق البحر وابتلع البرّ ، ومدّ أصابعه من خلال التراب وأدخلها من شقوق الأرض حتى بلغ (بردى) وهو (جنين) في بطن أمه الأرض ، تطيف به أحشاء ليّنة من جلمد الصخر ، تحنو عليه وتغذيه ، فغمره بالماء حتى ضاق به مكانه ، وامتد البلل إلى عظامه فخرج ...

وكانت الشمس قد طلعت على الأرض بعد (تلك) الليلة تمنحها الدفء وتغمرها بالنور ، و (تحدّد) فيها مملكة البر والبحر بعد أن كانت بحراً كلها ؛ فوقف (الوليد) ينظر مشدوهاً فيرى سهلاً أفيح جميلاً تحيط به جبال يَبْهَرْنَ شباباً ويَمْسَحْن جمالاً ، ولكنه عارٍ أجرد ، فآلمه عريه وتجرّده ، وود لو سعى في أرجائه بزرع فيه الحياة ويضع في تلك السفوح (بذور) المدن والقرى . ولكنه كان ضعيفاً (فلم يستطع أن يمشي) ، وتصرم النهار وهو جاثم مكانه لا هو قادر على الرجوع إلى بطن أمه ، ولا هو قادر على السير ، وأوحشه سكون الليل وظلامه ، ولم يعطف عليه الجبل ولا سامره السهل ، فلبث وحيداً حتى جاءت فتاة من بنات (الدَّلْب) كانت قد سمعت به فأحبت أن تراه ، فلما أبصرته عشقته وحنت عليه ، وأضجعته على ركبتيها (تهمس) في أذنيه أحاديث المدن البعيدة الحلوة والأودية المسحورة . . . حتى نام !

* * *

ومرت أيام نما فيها الوليد ، فغدا (صبيا) يمشي في السهل ، ثم شب فصار (فتى) قويّا ، (يعدو) نحو الوادي عدواً ...

راع ظهوره أهل تلك الديار فأعرضوا عنه بادئ الرأي ، ثم مالوا إليه فأحبوه ، واتخذوا مولده عيداً ، فنثر له السهل أعلامه الخضر ، وجمع له باقات الزهر ، وفرش له الجبل سفوحه ، وزيّنها بالورد ، وملكوه عليهم ...

وكان (بردى) الشاب ، طموحاً عالي الهمة ، فلم يقنع بملك ذلك السهل ، سهل الزبداني ، ولم يكفه أن خضعت له جبال مضايا وبلودان ، وأبى إلا أن يخرج فاتحاً لا يقف حتى يملك الوادي كله ، فحشد عسكره ، ودخل الوادي بطبوله ورايآته يثب على الصخر وثباً ، ينشد أنشودته (الهادرة) ، ولم يكن في الوادي إلا أميرات صغيرات ، ملكهن صخرة يخرجن من تحتها ، وساقية يجرين فيها ، فلم يلبثن أن بايعنه وخضعن له ، واندمجن في جيشه ، وسمت الأشجار بمسيره فقامت على طريقه صفين تحييه و (تصفق) له

حتى إذا اقترب من (الفيجة) جاءه رائده فقال له : قف ، فإن ههنا ملكة جبارة عرشها صخرة هائلة ، وجيوشها تملأ الوادي وتمتد إلى أبواب المدينة الأبدية الأزلية التي كانت من قبل ، وستبقى بعد المدائن كلها : دمشق !

(فقهقه) بردى ضاحكا من حماقة رائده . أي مدينة وجدت من قبله؟ وأي شيء يعرف القدم والبقاء إلا الله القديم بلا ابتداء، الباقي بلا انتهاء ؟ ثم زمجروا أقسم لئن وجد تلك المدينة قائمة من قبله ليدكنها دكا . وإن وجدها تنتظره ليجعلنها بإذن الله سيدة مدن الأرض وأمها ووارثتها . أما تلك الملكة فليحطمنّ عرشها ، وليدقن جندها ...

* * *

لأن جميع ذلك أمور وضعية ، والأمور الوضعية تحتاج إلى سماع من أهل ذلك اللسان . والفرق بين علم النحو وبين علم اللغة أن علم النحو موضوعه أمور كلية، وموضوع علم اللغة أشياء جزئية، وقد اشتركا معاً في الوضع[1] » — قيل لشارح التسهيل : إن القوم في الحضارة قد أحدثوا — بحكمة مدققين — ألفاظاً ما عرفتها العربية السالفة . وإذا كان ذلك ولم ينكر فهل يُسدُّ (احتياج) أحدث لفظاً رأى إحداثه، أن يبدع — محتاطا — تركيباً ؟

وهنا هذا الحديث : إن اللغويين لم تحوّش كتبهم ألفاظ اللغة كلها ، وقد فر شيء كثير . فهل يستطيع الناحي أن يقول ممتزاً : (علمُنا علمُ إحاطة) وقد استقرّت قواعدنا كل تركيب في كلام العرب ، وما فرّط (الكتاب[2]) من شيء

هل يستطيعنّ ... ! ؟

« يه »

(*) أنظر مقالتي عن بردى في الرسالة (عدد ٥٢)

(١) المزهر (٢) يعني الكتاب لسيبويه

وتقابل البطلان بردى (الأسمر) القوى (سلطان الزبدانى) الغازى الفاتح ، والفيجة (البيضاء) العتانة (ملكة الوادى) واصطف الجيشان هذا من هنا ، وهذا من هناك لا يختلطان[1] . ثم أقبلا فاصطرعا . فقلبت رجولة بردى وخضعت له الفيجة وسارت تحت ركابه ذليلة صاغرة ، وهى أعزّ منه جنداً ، وأسمى نسباً ، وأكرم عنصراً

ومشى يجول فى الوادى ويصول ، ويملأ أرجاءه بنشيده الحماسى المرعد

لم يجاوز إلا قليلاً حتى قابل أميرة صغيرة تخطر على السفح الجميل ، وفى (عينها الخضراء) صفاء وفيها وداعة ولها سحر ، كأن الناظر إليها يشرب منها خمراً ، تلقى أغنيتها بصوت ناعم حالم. كأنه همس القلب فى أذن الطيف الحبيب . فأصغى إليها الجبل الأصمّ ، ومال من الحنو عليها ، وعانقتها الشمس . فلما اضطرت إلى فراقها احمر جفناها[2] من كثرة البكاء . فذابت من حرارة الوجد قلوب (الثلج) وسالت مدامعها على خدود الجبال فاخضرت منها السفوح ، فمن ذلك سميت (الخضراء) . ثم لما عادت الشمس بسم الوادى ، فمن ذلك سمى وادى (بسيمة)[3] وكان لهذه الفتاة أمّ وصتها حين ألفتها فى لجة الحياة أن تحترس من النهر ، وتحذر أن (يخطفها) ثم (يبتلعها) فإنه شاب غدار طياش ...

* * *

لما أحسّ بها بردى صرخ مختالاً : من هذا الذى جرؤ على أن يمشى معى فى الوادى ، وينتزع منى مجدى ، وتبسم له الشمس من دونى ، وتحنو عليه وتسمع نشيده الصخور الصم ولا تميل علىّ ولا تصغى لنشيدى ؟...

فلما أبصرها شغفته حباً ، ودلهته غراماً ، فمد إليها ليخطفها ، فقامت دونها الصخور ووقفت تحميها (الدلبة)[4]

(١) ذلك مشاهد إلى اليوم فى الفيجة

(٢) أعنى حمرة الشفق

(٣) من زار الشام ومصايفها ولم ير بسيمة والعين الخضراء فلا يقل إنى رأيت الشام لئلا يقول غير الحق

(٤) فى بسيمة عند العين واحدة من شجرة الدلب لا يدرى أحد متى ولدت. وقد أدركت فى الشام دلبة أعظم منها ، كانت فى شارع فيصل ، فى مدخل السروجية ، أحسبها قد أدركت معاوية بن أبى سفيان وقد نخرها الكبر ، فاتخذوا فى جوفها مخزنا . وأظن أن محيط جذعها كان أكثر من اثنى عشر مترا . وكان يستند إلى فرع منها جناح كبير من منزل كان هناك ، وقد قطعها جمال باشا (عليه من الله ما يستحق) مثلما قطع أعناق البشر !

العظيمة التى تعيش هناك ، وتلوح بأذرعها مهددة ، فعجز عنها. وأنى له الوصول إليها وهى نائمة فى حضن الجبل ومملكته لا تتجاوز الوادى . . . فحطم الحب كبرياءه ، وما أجلّ ما يفعل الحبّ ! فتطامن ومشى ذليلاً . فلما رأته فتنها بصمته ، وحرّك قلبها بأحزانه فمالت إليه ، وشغفت (ببريق) عينيه وقوته وشبابه ، فنسيت وصاة أمها ، وتمنّت لو نامت على ذراعيه . فلما جرّبت ذلك حملها وطار بها إلى دمشق

وصرّ على بردى نصف مليون من السنين ، وهو السيد المطلق ، يجرى حراً أبياً ، لا يقف فى وجهه شىء ، حتى يجوز بدمشق ، ثم يذهب فيستريح فى (المُتيبِنَة)... ثم ظهر الإنسان على الأرض ، وظهر بردى على الطبيعة ، فويل له من الإنسان !

* * *

وفى ذات صباح جاءه طائر يلهث عطشاً . فلما سقاه أحب الطائر أن يجزيه خيراً ، فخبره أنه رأى هناك فى الرمال المحرقة التى تملأ (الجنوب) أمة من الناس ، يمشون فى طلب الماء . وقال له: إنى أخاف عليك منهم، فهم من أهل الجزيرة التى لا تغلب. من العرب . إنهم بنو الشمس ، بنو الصحارى ، بنو الموت ، أتظن أن الموت يمس أبناءه ؟

فضحك بردى وصرفه بسلام !

* * *

ووصل أول رجل من القافلة ، وكان من أهل (الجزيرة) . وهل خرج إلى الدنيا فى فجر الحياة غيرهم ؟ فلما رآه صاح بإخوته أن تعالوا انظروا كم يحمل من ماء الحياة ونحن هالكون عطشاً . فانبعثوا عليه كيلا يفلت من أيدينا . ضموا له الحواجز فى طريقه كيلا يهرب ...

وأراد أن يضربهم ضربة واحدة فيهلكهم فلم يقدر عليهم . وقدروا هم عليه فأحس أن نجمه قد شرع فى الأفول ... عطلوه عن سيره، وغلبوه على أمره ، ثم صنعوا معه صنع كل عدو غالب. فرّقوا جماعته ، وجعلوا أمته الواحدة أمماً سبعاً ، فبعد أن كان كله بردى صار بردى وريد وتورا وبانياس والقنوات والديرانى والقناة ، ثوّروا عليه أبناءه حتى استقلوا عنه واعتصموا منه بأكناف الجبلين ... ثم سلبوه الفيجة واستاقوها (مقيدة بالحديد) إلى دمشق ...

ولقد غضب بردى مراراً وهاج ، فكان يهجم على المنازل

وسا كنبها، فيشردهم شذر مذر، ولا يبقى منها حجراً على حجر، ويحسب أنه انتهى منهم ، فإذا هم بلدون غير من مات ، وبينون غير ما انهدم ... فكل وأيس ... وأحس أنه صار شيخاً !

* * *

ووقفت على بردى وهو يمشى فى (المرجة) رحبة دمشق تحت قصر أمية مشية الشيخ العاجز المتهافت ، فقلت له : هيه ... مالك ؟ تعبت ؟ أو قد شخت ؟

قال: دعنى يا غلام ، فإنى أسابر الأيام، فلما كانت مقبلة جادة كنت أقبل معها عدواً ، فلما تولّت وهزلت ... توليت ...

ومالى لا انى ، وقد باد مجدى ، وساء جدى ؟ ألا يا ليتنى ما عرفت الإنسان !

وسكت لحظة ، ولاحت على خدّه دمعة تجرى مع الماء ، ثم قال : على أنى رأيت والله ناساً كراماً ... أجلّونى وعرفوا قدرى، وكنت أمرّ بين أيديهم مرّ الرحيق السلسل ... وكنت أمشى فى الرياض على فتيت المسك ، وأنام على غناء ، وأصبح على شعر ، وأضحى على كرم ومجد ونبل ... فأين أنت يا قصر البريص[1]

وأين أولئك الذين كانوا لباب البشرية ، وكانوا مثلها العليا بحشمة ، أولئك المسلمون الذين شادوا مجداً جدع أنف الدهر ؟ أين ذلك الرجل[2] الذى مرّ علىّ يوماً وكنت أمشى فى الربوة على باب دمشق فى الموضع الذى امتلأ هواؤه بجراثيم ذلك المرض الفظيع، فلا يمر به أحد إلا أصيب به، المرض الذى يسمونه الحب فلا يذهب إلى الربوة من كان يخاف الحب ، لأنه لا يرى هذا الجمال إلا تفتّح له قلبه ، فذهب يفتش عمن يحب ... مرّ علىّ ذلك الرجل العظيم، فرأى الأغنياء لهم فى الربوة قصور ومنازل، والفقراء ما لهم إلا حجارة الجبل وحصى الوادى ، فلم ينصرف حتى أقام لهم متنزهاً ما رأى الناس مثله ، يجرى تحته (تورا) ، ويجرى فوقه (يزيد) ، وهو بينهما جنّة ، فيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين . فإن اشتهوا تمراً مدوا إليه أيديهم ، وإن اشتهوا لحماً ناولتهم السمك حياً ، فنقلوه من الماء إلى المقلاة[3] ، وإن أرادوا لذة العين وجدوا ما لا مزيد عليه فى دار الدنيا ، وعند الله فى الآخرة مزيد ...

فأين أولئك الناس ، وأين اليوم أمثالهم ؟

وسكت بردى هنيّة ، ثم رجع يقول ...

لقد شاقتنى أمس تلك القصور وهاتيك المنازل ، وقد سدّوا إليها الموارد ، وأقفلوا الأبواب ، (فانسللت) من شقوق الأرض حتى بلغت قاعة فى الدار العظيمة ، دار الفوتلى ، التى ترى عرصاتها من (منارة العروس) إذا أنت صعدت إليها ، ونظرت إلى ما تحتك إلى الشمال ، وراء قبر الملك الظاهر ، ترى عرصاتها فتحسبها حيّا كاملاً ، أو أطلال قرية كانت هناك ... دخلت القاعة فيا أسفى ، ماذا وجدت ...

لا الروض باقٍ ولا أهلوه باقونا ... ذوى الزهر ، وجف الماء ، وصارت البرك حفراً قاحلة ، وقد كانت تضحك فيها أوانس الماء متراقصة ضحك الحياة فى هذه الدار . . . وتعرت الجدران ، وقد كانت نقوشها ومقرنصاتها آية فى مصحف الفن ...

اللهم إنى أستغفرك ـ ولم يبق من ذلك (الصينى) الذى يملأ (الكبيّات) والرفوف إلا قطع غاصت فى التراب فبدت منها أطرافها ، ولا من السجاد الثمين إلا خيوط الله أعلم كم بللتها الأمطار ، وكم جففتها الشمس ، حتى غدت وليس لها لون يعرف . والرخام الأبيض الذى كان كالمرايا ... والأشجار والأوراد ...

لقد انصرف الدمشقيون عن هذه الدور التى كانت مصدر الفن العمرانى الأندلسى ، منها أخذ وعنها نقل ، وكرهوا هذه الجنان ، واتبعوا الأفرنج إلى (جحر الضب ... فآثروا عليها هذه الصناديق المغلقة التى يسمونها دوراً . فمن يفهمهم أنهم يخطئون ، وكيف السبيل إلى الاحتفاظ بالبقية الباقية من دور دمشق القديمة ، قبل أن تهدمها حماقة المالكين ، وفتنتهم بتقليد الغربيين ؟

ومتى يعلمون أن أوربة ليست أرقى منا فى عادات ولا دين ، ولكنها أرقى فى الصناعات . فياويح القردة المقلدين لقد ذهبوا يدرسون العربية ، حتى العربية لغتنا ، ذهبوا يدرسونها فى باريز !

(قال) : ودخلت تلك البركة التى طالما شهدت فيها أعراس

(١) عندى شواهد على أن موضع قصر البريص فى موقع (سوق النحاسين) اليوم ـ أمام الناخ من دمشق ، واسألوا مع ذلك أعلم أهل الشام بخطط الشام الشيخ دهمان العالم المجتهد الذى لا يجد من أحد تشجيعا .

(٢) نور الدين .

(٣) وهذا مثل ما يعرف في بغداد باسم (السمك المسفوف) وما عرفه من لم يره ، ولا درى بحاسه من لم يحضرها ، لأنها فوق الوصف !

الحياة أتذكر ، فرآني خادم هرود ، فصاح بابنه أن تعال أخرج هذا الماء الآسن من هنا ...

ماء آسن ؟ أنا آسن ؟ يا ويحكم . أما كنت طاهراً نقياً أسير في الوادي كما خلقني الله ؟ أما أكرمني من كان قبلكم ، ورفعوني بالنوافير على الرؤوس ، وكانوا يتقون الله فيّ فلا يمسونني بأذى؟ ويلكم أينا الآسن يا ذوي النفوس الآسنة ؟ كنت أصافح من أجدادكم عند الوضوء وجوهاً مشرقة نورانية وأيدياً طاهرة معطرة فصرت لا أرى منكم إلا السوء. دنستموني وآذيتموني؟ وألقيتم عليّ أوضاركم ، وتدّعون أنكم في عهد النور ، وأن عهد أولئك كان عهد ظلام ...

أعهد ظلام كان، وقد سطع فيه من عندكم نور العلم حتى ملأ الدنيا ، وامتد فيه شعاع الفضيلة حتى أضاء غياهب القلوب فبدد ظلمة الشهوات ؟ ورفرفت فيه الراية — رايتكم على نصف المعمور من الأرض — ولو اجتزتم نهراً عرضه خمسون متراً ، ولو أخر الله موت عبد الرحمن ساعتين، لرفرفت على النصف الآخر، ولنجا العالم من وحشية الشقر الآريين الذين يدعون كذباً أنهم أفضل منكم. دعوى إبليس حين قال : (أنا خير منه) !

لقد هدمنا مجدنا بأيدينا ، وأعنّا عدونا على أنفسنا ، فذللنا حين انقسمنا ، وأضعنا كل شيء حين ذللنا . أفلا يقظة بعد هذا النوم ؟ ألا نظرة بعد هذا العمى ؟ ألا زعيم مصلح حقاً يرجع الناس إلى الجادة التي ضلوا عنها ، إلى كتاب الله وسنة نبيه ، ويخلصهم من بليتين : من إلحاد المتفرنجين ، ومن شعوذة أصحاب الطرق الحشويين الجاهلين ؟

اللهم تباركت ربنا ، لك الملك ولك الأمر ، ولا شكاة إلا إليك ولا خير إلا منك . اللهم ما شخت ولا أصابني الوني ، ولكن أمرضتني الأقذار التي ألقوها علي ، وهذه البنى المتقنة التي أنشأوها على جوانبي : كعبات الشيطان : تريانون وأولمبيا والليدو وبناية الروكسي (السينما وما فوقها ...) !

وسكت بردى ، وعاد يمشي مشية الشيخ العاجز حزيناً متألماً !

هكذا تكلم الشيخ بردى ... !

« دمشق » علي الطنطاوي

الأدب الفنلنـــدي

للأستاذ صديق شيبوب

(بقية الحديث عن ملحمة كاليفالا)

ظهرت الطبعة الأولى لملحمة « كاليفالا » يوم ٢٨ فبراير سنة ١٨٣٥ . ولعل النجاح الذي صادفه هذا الأثر الفني شجع « لونرو » على متابعة رحلاته ، وكان قد عنى من قبل بجمع القصائد التي ينشدها سكان مقاطعة « كاريلي » ، فتوجه إلى المقاطعات الشرقية ونقل القصائد الشائعة فيها ، ثم ضمها إلى ما سبق له جمعه بحيث اكتملت هذه الملحمة وطبعت للمرة الثانية في شكلها الجديد سنة ١٨٤٨ في ثمانمائة واثنين وعشرين ألف بيت من الشعر وهي الطبعة التي يعتمد عليها اليوم . وقد نقلها إلى الفرنسية في شعر مطلق مقطع وفقاً لتقاطيع الشعر الفنلندي المسيو جان لوي بيريه Jean Louis Perret الأستاذ المعيد للأدب الفرنسي بجامعة هلسنكي .

كان لظهور هذه الملحمة فضل بعث الروح القومية في نفوس الفنلنديين . ويهمنا في هذا البحث من أثرها أنها حملتهم على العناية بلغتهم الأصلية .

قلنا : إن الأسوجيين بعد أن فتحوا فنلندا فرضوا لغتهم على سكانها ، فصارت اللغة الأسوجية لغة العلم والأدب ، بينما ظلت اللغة الفنلندية شبه لهجة يتحدث بها الشعب . فظلت متأخرة لا سبيل إلى التعبير فيها عن حالات النفس ورغباتها . وظلت اللغة الأسوجية مسيطرة على اللغة الفنلندية ، حتى بعد استيلاء روسيا على دوقية فنلندا الكبيرة . وكانت تعلم في مدارسها وجامعاتها .

ولما أخذ الفنلنديون يشعرون بقوميتهم بفضل ظهور ملحمة « كاليفالا » ابتدأ الشعب يناضل للتخلص من اللغة الأسوجية التي لا تزال الطبقة الأرستقراطية متمسكة بها إلى اليوم

فلا عجب إذا احتفى الفنلنديون بهذه الملحمة واحتفظوا بها كاحتفاظهم بمفاخرهم القومية وآثارهم الوطنية التي كشفت لهم عن كنوز ماضيهم الدفينة وأوحت إلى نفوسهم الثقة بمستقبلهم